سياسة الإمبراطور المغاربي سبتيميوس سفيروس

في قيادة الإمبراطورية الرومانية

أ.حمادوش بولخراص، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص: هذه الدراسة تتمثل فيما أضحت عليه الإمبراطورية الرومانية بعد الاستيلاء على العرش من قبل قائد إفريقي المدعو سبتيميوس سيفروس، يعتبر عصره بداية تغيير في تاريخ الإمبراطورية، حيث اعتمد على أسلوب عسكري وبصيغة ديمقراطية في تسيير الإمبراطورية، لقد اعتبر بعض المؤرخين تولي الأجانب السلطة تجاوز خطير في تاريخ الإمبراطورية، كما اعتبروا سبتيميوس العنصر الرئيسي في اضمحلال الإمبراطورية الرومانية.

Summary

This study is what became the Roman Empire after the seizure of the throne by an African commander called Septemius Severus, His time is the beginning of a change in the history of the empire, Was based on a military style and a democratic formula in the administration of the empire, Some historians consider the seizure of power by outsiders as a dangerous transgression in the history of the empire, They also considered Septemius as the main element in the decadence of the Roman Empire.

شخصيته: لوكيوس سبتيميوس سيفيروس (Lucius SeptimiusSeverus) ولد سنة146م من أب يدعى جيتا(Géta) وأم فلافيا بيا(Fulvia Pia)[1]، يعتبر أول إمبراطور عسكري، ابن مدينة لبدة لبتيس مجنا (Leptus Magna)، يتكلم اللاتينية بنبرة هيلينية، تلقى تعليماً رومانياً وثقافة لاتينية، درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما، تمرس في سلك الوظائف تحت رعاية ماركوس أوريليوس، زوجته الأولى مارسيا(Murcia)، تولى التربيونية ثم عين برايتوراً في إسبانيا وحاكماً على جنوب غالة وبانونيا، عضو في مجلس الشيوخ إلى جانب مركزه العسكري كقائد جيش إقليم جرمانيا[2].

كان طموحاً من ورائه زوجته الثانية يوليا دمنا (Julia Damna) السورية الأصل، التي كانت تنحدر من أسرة ثرية بحمص لها مركزكهنوتي كبير، أنجبت له ولدين هما باسيانوس (Lucius Publius Septimius Antoninus Bassianus) الملقب كاراكلا(Caracalla) وجيتا(Lucius Septimius Antoninus Geta)[3]، قلد ولديه بمرتبة قيصر مع الاسم المعظم انطونينوس، كما أبحر في نهر النيل جنوباً وأمر بترميم الثقوب الموجودة في تمثالي ممنون* اللذان كان يصدران صوتاً خاصة عند الفجر[4]، قسم ولاية مصر وسوريا إلى ولايتين كما فعل بولاية بريطانيا، زار آسيا وولاية الدانوب.

لقد اعترف حول امتلاك العرش قائلاً:"لقد كان هو كل شيء، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر"[5]، توفي في الحملة على بريطانيا بسبب المرض بمدينة يورك (Eburacum) يوم04 فبراير211 م، هذا ما جعل الجيش الروماني يتوقف عن توسعاته في اسكتلاندا وظل السور حداً فاصلاً بينها وبين أملاك الإمبراطورية الرومانية.

ظروف توليه حكم الإمبراطورية الرومانية:

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية، في نفس الوقت نمى الوضع العسكري وبشكل استثنائي، أعطيت القيادات للعسكريين الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات والحروب، إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلة، خاصة بعد اغتيال كمودوس انطونين (Commodus Antonin)، حيث تألق إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة اشهر، بوبليوس هلفيوس بارتيناكس (Publius Helvius Pertinax) وماركوس ديديوس يوليانوس(MarcusDidiusIulianus)، هذا الأخير الذي وصل إلى الحكم بشراء ذمم الحرس البريتوري، عاش منغلقاً على نفسه داخل مقصورته، إثر هذه الأفعال مباشرة شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم بتنصيب قادتها أباطرة.

ثارت القوات العسكرية في المشرق وفي سهول الدانوب وفي بريطانيا، رشحت قادتها طمعاً في مكافأة مجزية بعد الوصول إلى العرش، يبدو أن القادة كانوا يحلمون بالإنقلاب حتى قبل تعيين يوليانوس، هتفت قوات الشرق بقائدها جايوس بسكنيوس نيجر(GaiusPescenius Niger) والي سوريا، كما ردت قوات الدانوب بالمثل هاتفةً بقائدها وحاكم منطقتها بانونيا(Pannonia) إمبراطوراًالمدعو سبتيميوس سيفروس، وفي نفس الوقت نادت القوات المتاخمة في بريطانيا بقائدهاكلاوديوس البينوس(Claudius Albinus)[6]، لكن جيش الدانوب بقيادة سبتيميوس، دحر خصومه واستولى على عرش روما مؤسساً بذلك الأسرة التي حملت اسمه من(193م-235م)[7].

كان لضخامة الجيوش أثر في ترجيح كفة ميزان الصراع على العرش، نجد البينوس يقود ثلاث فرق، أما نيجر يقود تسعة فرق وسبتيميوس فكان يقود اثنى عشر فرقة، فضلاً عن تواجده بالقرب من إيطاليا، كان التأييد العام يميل نحو نيجر، خاصة من جانب مجلس الشيوخ والشعب الروماني، لكن سبتيميوس كان أسرع منه في التصرف، دخل روما من الشمال وأضاف اسمه مباشرة إلى الراحل برتيناكس ليلغي وجود يوليانوس القانوني من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يظهر نفسه منتقماً لمصرع برتيناكس ووريثاً له كإمبراطور، حتى انه أعلن نفسه ابنا بالتبني لماركوس أوريليوس، أرغم مجلس الشيوخ على تأليه أخيه بالتبني كمودوس كما زعم، حتى أنه غيّر اسم ابنه باسيانوس الذي اشتهر فيما بعد بـ

كراكلا وسماه ماركوس أوريليوس أنطونينوس، وهذا لعدة أسباب ربما بدافع ربط أسرته بهذه الأسرة أو لهدف وراثة ضياع أنطونينوس التي ضمها، أو ربما لإعجابه به[8].

لما أحست قوات الحرس الإمبراطوري بنوايا سبتيميوس هجرت يوليانوس، هذا الأخير الذي أظهر عدائه لسبتيميوس قبل دخوله روما عندما أعلن بإسم مجلس الشيوخ أن سبتيميوس عدو الشعب الروماني[9]، على إثر هذا الوضع رضخ المجلس لسبتيميوس كما انعموا عليه بالألقاب التشريفية وأدانوا يوليانوس بحكم الإعدام[10].

كان على سبتيميوس التخلص من أعدائه ومنافسيه خاصة نيجر والي سوريا ومن أجل ذلك هادن البينوس قائد بريطانيا واستدعاه لتولى مهمة أخرى[11]، ثم استدعى سبتيميوس قواته إلى الخدمة لمحاربة نيجر الذي كان قد ضمن لنفسه مبايعة الولايات الشرقية، وكان نيجر يحظى بموقع استراتيجي هام لأنه يمكن أن يقطع القمح المصري عن روما فترضخ خوفاً من المجاعة، ولهذا السبب قام سبتيميوس ببعث فرق عسكرية الى افريقية لقطع الطريق على نيجر خوفاً من استيلائه على مصر وليبيا، كذلك بعث بفرق أخرى إلى بلاد اليونان وتراقيا[12]، تحرك نيجر واستولى على مدينة بيزنطة ليتحكم في مدخل البوسفور والدردنيل، وما أن وصل سبتيميوس حتى حاصر بيزنطة محرزاً عدة انتصارات جعلت من نيجر يتراجع ويحتمي بجبال طرسوس بسوريا سنة 194م، لاحقه سبتيميوس وهزمه في أيسوس في المكان الذي هُزم فيه ملك الفرس دارا (داريوس) من طرف الإسكندر الكبير، اتجه نيجر نحو الفرات محاولاً الهروب إلى مملكة البارثيين[13]، لكن جنود سبتيميوس لحقت به وقتلته[14].

انتقم سبتيميوس من المدن والقوات التي أيدت نيجر، مثل أنطاكيا(Antioche) التي أمدته بالمال والرجال، قام كذلك بإعدام رجال المجلس الذين حاربوا إلى جانب نيجر بصفة قادة وترابنة (Tribun)[15]، ثم قام بغزو منطقة شمال ما بين النهرين محاولاً محاربة البارثيين لولا استدعائه العاجل لمواجهة خطر الانقلاب الذي قام به البينوس سنة 195م، في هذه الأثناء استسلمت بيزنطة من جراء الحصار، هدمت أسوارها وقتل أعضاء حكومتها ونهبت أموالها.

جلس البينوس على عرش الإمبراطورية الرومانية بعد غياب سبتيميوس، ومما ساعده للخروج عن طاعة سبتيميوس هوالمجلس وزوجته خاصة، لقبوه بلقب أغسطس وقبل البينوس تحدي سبتيميوس، وقام بجمع قواته عند لوجدنوم(Lugdunum) ليون حالياً بفرنسا، قام سبتيميوس بتعيين ابنه كاراكلا قيصراً وولي عهده، ثم سار غرباً لملاقات خصمه البينوس.

في شهر فيفري سنة 197م، انتصرسبتيميوس على خصمه البينوس،كما قام بتأديب سكان مدينة ليون، حيث أطلق لجنوده العنان في القتل والنهب وإشعال النار في معظمها[16]، ومن هذا التاريخ آل

عرش الإمبراطورية إلى عائلة مغربية ليبية خلال الثلث الأول من القرن الثالث وهي عائلة سبتيميوس من لبدة التي استطاعت الاحتفاظ بالتاج من(197م-235م) وتحدث تغيرات جوهرية في تاريخ الإمبراطورية[17].

يمثل عهد سبتيميوس نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، لبلوغ السلطة كان عليه أن يتغلب على كل خصومه، وهكذا اضطربت أحوال الإمبراطورية واهتزت أركانها بنشوب حرب أهلية، مما أدى إلى اختلال الميزان الاقتصادي وخاصة بازدياد رقعة أراضيه التي استولى عليها نتيجة مصادرته لممتلكات خصومه،كمالا يمكن انكار صفاته التي تجلت في قيادته وبطشه ووحشيته اتجاه خصومه المتمثلين خاصة في طبقة النبلاء والمثقفين، الذين كانوا يمثلون حاشية الإمبراطور السابق، فقد استوجب عليه التغيير إذ لجأ إلى اختيار ولاته وحاميته من طبقة تختلف عن سالفتها في النشأة والنظرة إلى الحياة.

سياسته العسكرية:

استولى على العرش بقوة السلاح والجيش، الذي وهبه الحكم والسلطان مع إكراه مجلس الشيوخ على قبوله وإعطائه الصبغة الشرعية[18]، لقد أدرك الأهمية الحيوية التي ترتبط بتكوين جيش يدين له بالولاء حيث اعتمد عليه في فلسفة حكمه، إذ أن سكان المقاطعات وحدهم الذين كانوا يقبلون على الانخراط في الجيش بعد تنظيمه الجديد.

ولكي يُرضي المجلس ترك لهم الأمر ليحاكموا أعضائه الفاسدين إزاء ذلك أذعن المجلس لمطالبه، وألقى بقاتل كمودس الملقب ناركيس (Narcisse)إلى الأسود[19]، كما حاكم كل أتباع وأنصار جوليانوس وقتلة برتيناكس من قوات الحرس الإمبراطوري، واستبدلها بقوة جديدة من جيش الدانوب، وبذلك ضمن لنفسه تأييد حرس جديد انتقاهم بنفسه[20]، وأخيراً وجد سبتيميوس نفسه إمبراطوراً لا ينافسه أحد في الحكم، على إثر انقطاع العلاقة بينه وبين البينوس ونهاية نيجر، نشب الصراع بينه وبين المجلس باعتباره خرج على نظام التبني بعدما قام بإشراك ابنه كاراكلا معه في الحكم[21]، مما اوجب عليه اقتلاع جذور المتآمرين في روما، مستخدماً عنفاً لم يسبق له مثيل، في روما وحدها أعدم تسعة وعشرون عضواً من أعضاء المجلس بتهمة التآمر والخيانة العظمى[22]، ساد الرعب والخوف، وأذعن المجلس لكل مطالب الإمبراطور كما وافقوا على تعيين ابنه كاراكلا كخليفة منتظر(Imperator Designatus)، وهكذا أصبح الجيش لأول مرة ممثلاً لكل شعوب الإمبراطورية عن طريق فتح التطوع أمام الجميع.

في سنة 199م عندما زار مصر أمر بإدخال تعديلات إدارية، منها منح الإسكندرية مجلساً تشريعياً وكذلك باقي مدن مصر[23]، هذه الخطوة كان يقصد بها توحيد النظم في سائر أرجاء الإمبراطورية الرومانية، في هذه الأثناء استغل ملك البارثيين فولوجاكيس الرابع(Volojacis IV) الصراع القائم في روما مستولياً على أرمينيا وشمال بلاد مابين النهرين، وجد الإمبراطور سبتيميوس نفسه في قتال مفروض عليه

وحروب مستمرة منذ سنة 197م للميلاد، قاد الحملة بنفسه ضد الفرس في الشرق، وصل بجيشه شتاءاً (197م-198م) مما أجبر البارثيين على التراجع ورفع الحصار عن قلعة نيسبيس (Nisbis) الرومانية[24]، عندما هاجم سبتيميوس مملكة البارثيين انتهى بسقوط عاصمتهم (طيسفون) على شاطئ دجلة وإنشاء ولاية ما بين النهرين (Mesopotamia)[25]، من بعد هذه الهزيمة زالت مملكتهم وتوارت منذ تلك الفترة[26]، قضى الإمبراطور الفترة مابين سنة (199م-202م) في تجوال دائم، أخمد خلالها نيران التمرد بمقاطعات الشرق كما أجرى إصلاحات إدارية وعسكرية[27].

قضى سبتيميوس مدة عامين بإفريقية ووضع عدة استحكامات على الحدود، كما رفع عدة مدن إلى المساواة في الحقوق مع الرومان،ثم فصل إقليم نوميديا عن إفريقية، ومن الملاحظ أنه كان يتخذ طابع تفتيت الولايات الكبرى حتى يعطيه ذلك فرصة في السيطرة المطلقة وكذلك ليحول دون أحلام التمرد والانفصال الذي كان يراود بعض حكام الولايات، في سنة 208م زار بريطانيا ورد القوات الزاحفة إلى حدود اسكتلندا ثم جعل حائط هادريانوس الشهير حداً فاصلاً بين بريطانيا الرومانية والقبائل الشمالية، بعد هذا أنعم على ابنه جيتا بلقب أغسطس سنة 209م ورفعه من درجة قيصر.

لم يضمن الإمبراطور ولاء الجيش له برفع راتب الجندي فحسب بل سمح له بعقد قران روماني شرعي أثناء مدة خدمته، وبأن يعيش خارج الثكنات ومن ثم يصبح أبنائه مواطنين رومانيين يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية،كما لا يلغي أن يتبع هؤلاء الأبناء حرفة آبائهم،كل هذا العمل من اجل صد الخطر الذي كان يداهم الإمبراطورية[28]، ضرب بيد لاترحم الأرستقراطية الرومانية التي وقفت إلى جانب خصومه، حيث أبيد عدد كبير من أسر الأعيان،كما مكنته المصادرات الوحشية من إشباع خلصائه، ضاعف راتب الجيش وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط، كما سرح الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً اختاره من صفوة جنود الأقاليم، حتى أصبحت روما تغص بالعساكر، وجود أكثر من فرقة قرب روما يجعله يعتمد عليها في محاربة بعضهم البعض عند الضرورة، حشد الألبانيين ليقفوا بالمرصاد للحرس الإمبراطوري، وعساكر التموين في وجه الفرسان الممتازين، كل هذا كان تأهباً في حالة السعي لإسقاط الإمبراطور عن العرش[29]، كما أذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك الأراضي، ليعيش الجندي مع أسرته وفي موطنه، ولا يذهب إلى الثكنة إلا لأجل التدريب، كما شرع بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة[30].

تمكن سبتيميوس من السيطرة على الوضع في الإمبراطورية، وأعاد الأمن والطمأنينة للنفوس عندما دحض أعداء روما المتاخمين على الحدود، خاصة الكاليدونيين الذين اجتاحوا معظم الجزيرة البريطانية مما أضطر الإمبراطور إلى محاربتهم وقيادة الجيش بنفسه،كان إلى جانبه ولديه كاراكلا وجيتا سنة 208م، قام بإعادة بناء سور هادريان الذي حطموه[31]، أصلح سبتيميوس المجال العسكري فعدل

الجيش، وغيّر قياداته لضمان الولاء، قام بإسناد الوظائف الإدارية للجنود المخلصين له، فانفسح المجال أمام الضباط للوصول إلى أعلى المناصب في إدارة الإمبراطورية،كما اعترف بشرعية الزواج الذي يعقده الجنود مع نساء غريبات[32]، أثناء أداء تأديتهم الخدمة العسكرية والاعتراف بشرعية الأبناء الذين يولدون من هذا الزواج(Ex Castris)، بل وسمح للجنود المتزوجين بحق الإقامة مع عائلاتهم قرب المناطق التي تعسكر فيها القوات التابعين لها[33].

وبعد الاستقرار سارع بتوزيع المنح (Congiaria) على الجنود وعلى الشعب، وزاد رواتب الجند بمقدار الثلث تقريباً، يرى البعض أن هذه الامتيازات منحت إجبارياً لا اختياراً وتحت دافع الحاجة الى تأييد الجيش للحكم ولم يعد الإمبراطور قادراً على منح فرقة معينة امتيازاً خاصاً دون الأخرى كما كان يحدث سابقاً.

كانت وجهة نظر سبتيميوس عدم احتكار الحكم من طرف الرومان والإيطاليين والسماح لسكان المقاطعات بالتمتع بهذه الحقوق التي حرموا منها منذ أمد طويل، ولتحقيق ذلك اتبع طريقتين الأولى تقليل من امتيازات إيطاليا، ومعاملة الولايات الأخرى بدون تمييز لتصل في نفس الوضع التي كانت عليه إيطاليا، ظهرت سياسته الداخلية اهتماما لم يسبق له مثيل لمصالح الرعايا الذين يعيشون بعيداً في الأقاليم خاصة مشاكل الإدارة والحكم، ولم يكن له اتجاه قومي معين وهذا ما يلاحظ عند توزيع مهام الإدارة والعمل، خاصة لقدماء المحاربين وقام كذلك بإعفائهم من أداء الخدمات البلدية (Munera)[34]، رغم هذا أتهم بأنه لا يحمل شعوراً وطنياً للإمبراطورية بقدر ما يحمل لولايته الأصلية في إفريقية.

ومن التجديدات التي قام بها سبتيميوس تعيين قائدين لقوات الحرس الإمبراطوري بدلاً من قائد واحد، وصل لهذه النتيجة بعد تجربته مع قائد قواته البرايتوريةجايوس فلوفيوس بلاوتيانوس، الذي استغل زمالته للإمبراطور في تدعيم مركزه، حصل على مقعد في مجلس الشيوخ وتولى القنصلية ونظم زواج ابنته بلوتيلا من كاراكلا رغم معارضة الأم يوليا دمنا[35]، وفي عهد بلاوتيانوس ازدادت مسؤوليات قائد الحرس الإمبراطوري[36]، أصبح يشرف حتى على حصص القمح (Annona)، وينظر في القضايا المدنية الواقعة على مسافة 100 ميل من مركزالعاصمة ونزع هذا الحق من القضاة الذين اضحوا ينظرون في قضايا الأقاليم فقط،كما تولى الاستماع في قضايا الاستئناف والفصل فيها باسم الإمبراطور، أزعج تضخم مركز بلاوتيانوس كل من يوليا دومنا وابنها كاراكلا فدبرا له مؤامرة للقضاء عليه سنة 205 للميلاد، باتهامه بالخيانة العظمى ثم اغتياله فيما بعد، ومن هذه اللحظة تفادى الإمبراطور ماحدث بتعيين قائدين حتى يراقب كل منهما الآخر[37].

كان يسير مبدئياً على سياسة الحكام الذين سبقوه، فلم يكن هناك أي انقلاب ثوري في سياسته هذه، ولكن جعل قيادة الإمبراطورية تعتمد على اسلوب عسكري محض وبصيغة ديمقراطية، كانت هذه السياسة نتيجة لازمة لاغتصاب السلطة وإنشاء ملكية وراثية جديدة، حتى أنه رفع صورته وصورتي ابنيه على تيجان الكهنة (Flamines) في البلديات بدلاً من صور آلهة الكابتول[38].

سياسته الإقتصادية :

الجانب السلبي في سياسته يتسم بازدياد رقابة الدولة على الجمهور ومصالحه وذلك عن طريق أجهزة ذات طابع عسكري بحت، ومن العوامل التي ساعدت على ظهور شخصيته هو التدهور الاقتصادي المفاجئ في الإمبراطورية الرومانية، هذا ما دعاه في اتخاذ سلطات فوق القانون لمواجهة هذا الانهيار، وبالفعل نجح في تحسين الوضع قليلاً بزيادة الضرائب، لكن التدهور غطى على الإصلاح مما أضطر الإمبراطور إلى تخفيض قيمة العملة بالتقليل من وزن الفضة والذهب التي الحقت بالتجارة الداخلية الخراب، كما هدد مستأجرو الأراضي التابعة للإمبراطور بترك الأرض إذا ما استمر إجبارهم على القيام بالأعمال الإلزامية في المدن التي تقع حقولهم في زمامها مما يعطلهم عن فلاحة الأرض التي يدفعون عنها الضرائب والرسوم، حتى أن بعضهم هجر الأرض وانظم إلى العصابات في الجبال، وقد قام بعض الفلاحين برفع التماسات إلى سبتيميوس حول ظلم الأغنياء الذين اغتنموا غياب الفلاح في أداء الواجب نحو الإمبراطورية بالاستلاء على أراضيهم[39]، كما ورث خزانة فارغة بسبب نفقات الحرب قبل وبعد توليه الحكم، لكنه تغلب على العجز عن طريق مصادرة أملاك أعدائه، مما تطلب إنشاء خزينة خاصة (Ratio Privata)[40].

كان كذلك لسياسة سبتيميوس وجهاً آخر، قام بإطلاق الحرية لرجال الشرع والفقه، فظهر القانون في عهده متصف بالنبل والشمول والإنسانية وبرزت فكرة العدالة البشرية، فمن حق الجميع أن ينعموا بالمساواة، هذا مما أدى إلى ظهور تشريعات في عهده اتسمت بالعطف على ضعاف الناس من فقراء وفلاحين تحميهم من ظلم الطبقة الحاكمة وعسف الإدارة الإمبراطورية.

لقد ساس سبتيميوس الإمبراطورية على نحو حقق له التوازن في الولاء من طرف أهل المدن والأرياف على السواء، حيث أظهر تفهمه لسكان المدن وأغدق عليهم مثل ما هو الحال بالنسبة للريفيين، ونالت المدن التي وقفت إلى جانبه ضد خصومه حظاً كبيراً من العناية، مثل مدن إفريقية، سوريا والدانوب التي عمها الرخاء وساد فيها الازدهار وارتقى الكثير منها أعلى درجات السلم الإداري، وخصَها الإمبراطور بالهبات والمباني ذات المنفعة العامة والمنشآت التذكارية، خاصة في إفريقية، أقام بها الصروح والتماثيل وأقواس النصر تعبيراً عن تعلقه بها، وهناك مدن لاقت ضنك العيش وشدة في التسيير

ومضايقة من طرف الحكام، خاصة المدن التي اشتهرت بموقفها العدائي مثل بيزنطة، ليون وانطاكيا[41]، اعتمد سبتيميوس على خيرة الأعلام في التشريع والقانون الروماني كان أحدهما بابنينوس(Papininus)السوري الأصل،كما ضم إلى مجلسه الاستشاري اثنين آخرين من شيوخ الفقهاء القانونيين وهما باولوس والبيانوس(Ulpianus)سوري الأصل[42]،كان هؤلاء متشبعين بالثقافة الهيلينية الشرقية بالإضافة إلى تعليمهم الروماني، كما قام بصد الاستغلال السياسي الذي اتخذه الأغنياء (Humiliores) على حساب الفقراء (Honestiores)، قام كذلك بتعيين مدرسين لتعليم أهل القرى، وضع عدة لوائح إنسانية، منها تحريم الإجهاض وحماية حقوق الزوجات ورعاية الأسر الفقيرة، وفي عهده وزع الدواء مجاناً على المرضى بإشراف الطبيب جالينوس[43].

تدفق الجنود المسرحون(Reterani) على الوظائف في الولايات في فترة حكمه، وشغل الضباط الصغار الكثير من الوظائف التي كان يشغلها رجال طبقة الفرسان التي أحالها محل طبقة المجلس، منح عدة امتيازات للجمعيات والرابطات (الصناع والتجار) (Collegia) مقابل المساعدة في إطفاء الحرائق عند نشوبها بالمدن، أما أصحاب السفن فكانت لهم رعاية خاصة لأن سفنهم تقوم بخدمات هامة نظراً لجمعها ونقلها المؤن أثناء الحملات تم اعفائهم من أعباء البلديات، منح مستأجري الضيعات الإمبراطورية نفس الامتيازات باستثناء التكليف بأداء أعمال خيرية[44].

الجوانب السلبية والإيجابية لسياسته:

اعتبر بعض المؤرخين انعطاف خطير في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، منذ تولي العناصر الدخيلة القيادة والسلطة، لكن بالرغم من ذلك حاول التحلي بمزايا الأباطرة الأولين وهذا ما نلاحظه عندما غير اسم ولده باسيانوس الذي اشتهر باسم كاراكلا، حتى انه كان شديد الإعجاب بسلفه ماركوس أوريليوس،كانت عقليته مزيجاً من البيروقراطية والعسكرية وواقعية التفكير السياسي حسب مشاكل العصر وأخطاره[45].

الجوانب السلبية:

لقد أصاب الروح العسكرية في الصميم بسلوكه هذا الذي اتخذه سبيلاً مع جنوده للحفاظ على العرش وهذا ما يبدوا من خلال مقولته الشهيرة التي أوصى بها ولديه، وهو على فراش الموت حيث قال:"أوصيكما بالاتحاد وإجزال الغنى إلى الجنود وازدراء البقية" أو كما يقول آخرون"اجزل العطاء للجيش ولا تبالي بالآخرين"، لقد أثارت هذه المقولة حفيظة المؤرخين ومنهم من نفاها عنه، ولكنها تطابق سياسته العامة وتعبر بصدق عن المكانة المرموقة التي حظي بها الجيش لديه، تلك المكانة التي ضمنت لأسرته وراثة العرش من بعده[46].

قام بوضع أساس مقدس للأسرة الحاكمة، حيث أصبح الإمبراطور رسمياً يعرف باسم المولى (Dominus)، وروما مقر قصره تعرف بالمدينة المقدسة (Urbs Sacra)، غيَر الحكم من أساسه ليتخذ طابع الأوتوقراطية العسكرية أو الحكم العسكري الانفرادي والمطلق[47]. فرض لأول مرة على إيطاليا تواجد قوات الجيش على أراضيها بالقرب من روما مثلها مثل باقي المقاطعات الرومانية الأخرى.

اعتبر أن الجيش هو جوهر السلطة والحكم ومصدرها، حيث أعطى الجنود وضعاً مميزاً، ولهذا اتهمه المؤرخين بأول من زرع الديكتاتورية العسكرية، ومن المزايا التي تحصل عليها الجنود في عهده، زيادة كبيرة في الرواتب بلغت مقدار الثلث بحجة تعويضهم عن زيادة الأسعار التي ارتفعت في عهدكمودس.

لقد جمع بين يديه ثروة طائلة من العقار خاصة بعد إنشائه مصلحة خاصة التي عرفت باسم (Ratio Privata) والتي من خلالها امتلأت خزانة الإمبراطورية، سخي بهذا المال الذي جمعه من المصادرة والإتاوات في رشوة الجنود ورعاع الرومان لتنمية مصالحه وإرضاء مطامعه الشخصية [48].

نتج عن ذلك ظهور المساكن الحقيرة بجوار الثكنات العسكرية، تقيم فيها زوجات الجنود وأبنائهم، كما أتاح لهم العيش في شكل مجموعات بهدف إنماء عددهم، مما أدى إلى انهيار الروح العسكرية بصفة تدريجية، لدى الجندي الروماني[49].

مصادرة الأراضي عصفت بالحياة الاقتصادية، فرأس المال الخاص والابتكار الفردي استبعدا، وحل محله نظام إداري بيروقراطي جديد، كان رأس الفساد في الإمبراطورية هم العدد الغفير من عمال الإمبراطورية وأكثرهم الجند ومنهم عساكر التموين (Frumentarii) الذين يقومون بواجب الشرطة، وجنود الثكنات (Stationarii) والشرطة الحربية (Colletiones)، الذين كانوا يبتزون الناس، وخاصة في الحروب لم تراعى مصالح الشعب، نجد كذلك التجنيد الإجباري واغتصاب وسائل النقل وخدمة الجيوش القهرية من طرف الشعب (تموين، إيواء، جمع التبرعات...) هؤلاء الجنود الذين كانوا ينقضوا على القرى والمدن سلباً ونهباً، أدى ذلك كله ببعث التماسات إلى الإمبراطور من أجل انصافهم ولكن لم تؤخذ شكاويهم بعين الاعتبار من طرف الإمبراطور، على إثر هذا ظهر الساخطون على موظفي الحكومة ومن هنا ظهرت حالة الفرار من الحقول والانضمام إلى العصابات المسلحة، ولهذا لا يمكن القول أن عصر سبتيميوس كان عصر رخاء ورفاهية[50].

الجوانب الإيجابية: منح لبعض سكان الولايات الحق الإيطالي، هذا الحق يعطي نفس الامتيازات الاجتماعية والتشريعية للمواطنين خاصة بولاية إفريقية وصقلية.

الغى احتكار تجنيد القوات الإمبراطورية من بين الرومان والإيطاليين وفتح الباب لجنود المقاطعات الأخرى حتى يكسر سيطرة الرومان والإيطاليين على هذه القوات التي كثيراً ماكانت تصنع الأباطرة، حتى أنه حرم على الرومان الدخول في هذه القوات ولم يلغى هذا القانون إلاّ في بداية القرن الرابع للميلاد.

كسر احتكار الرومان لعضوية مجلس الشيوخ وفتحها أمام جميع سكان الإمبراطورية حتى أن الإيطاليين لم يعد يشغلون سوى ثلث المجلس.

لقد حطم الطبقة السياسية العازلة بين الرومان والمواطنين في الولايات الأخرى وهدم كل أعمال هادريانوس الذي حاول أن يجعل فاصلاً بين ولايات الغرب والشرق.

فتح الوظائف المدنية امام العسكريين وسهل لهم الترقيات ومنحهم الامتيازات بعد التسريح من الجيش،كما سمح لهم بفلاحة الأرض الواقعة حول المناطق التي كانوا يعسكرون فيها، وإنشاء القرى الدفاعية المسلحة خاصة على الحدود، وزاد من كفاءة الجنود القتالية بتشجيع التخصص في أنواع الأسلحة، ودفع الفرسان لتولي قيادة هذه التخصصات، وانتزع المراكز القيادية من المجلس نظراً لتدهورالروح العسكرية عند هذه طبقة، هذا يعتبر تحطيم للتقليد الطبقي الروماني الذي كان متبعاً بدقة منذ أيام اغسطس، كذلك أنشأ قوة عسكرية متحركة يقودها بنفسه، كما ازداد عدد الفرق في فترة حكمه من 30الى 33 فرقة عسكرية.

يلاحظ كذلك الهبوط المستمر في قيمة العملات الفضية منذ عهد الإمبراطور اوريليوس (161م-180م) الذي أنقص الدينار الى 75 في المائة من الوحدات الفضية، حتى بلغ مقدار النقص 50 بالمائة من قيمتها في فترة حكم سبتيميوس (193م-211م).

غفر معاصروا سبتيميوس له ضروب القسوة التي استهل بها عهده، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك ولكن الأعقاب الذين خبروا الأثار الفتاكة لمبادئه ولمن حذا حذوه، اعتبروه حقاً المنشئ أو المخطط الأساسي لاضمحلال الإمبراطورية الرومانية[51].

(1) Suétone, les Ecrivains de l'Histoire Auguste, Trad. M. Nisard, Paris, Garnier Frères Libraires, 1865, I, p. 387.

(2) Ibid, II, p. 388

(3) علي الناصري سيد احمد،تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري،القاهرة،دار النهضة العربية،ط.1991،2،ص. 314.

* بطل اسطوري اتيوبس (Aethiops) معناه بالإغريقية محترق الوجه ورد اسمه في حرب طروادة، كان ملكاً على اقليم اثيوبيا جنوب طيبة المصرية، ورد باسم ممنون امه ربة الفجر(Aurora)، لقي حتفه حيث كان الى جانب الأسيويين ضد الإغريق، البطالمة هم من اختلقوا اسطورة البكاء والنحيب للتمثالين وخاصة عند الفجر. انظر: علي الناصري سيد احمد ، المرجع السابق، ص. 37.

(4) ابو اليسر فرح، تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، القاهرة، عين الدراسات، ط.1، 2002، ص. 191.

(5) جيبون ادوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر. محمد علي ابو درة واحمد نجيب هاشم، القاهرة،الألفللكتاب،1997،ط. 1،ص،127.

Dion Cassius, Histoire Romain, Trad. E. Gros, V. Boissée, T. 2, Paris, Librairie de Firmain Didot Frères, 1870,

(6)L.LXXIII, XIV.

(7) ف،دياكوف.س،كوفاليف، الحضارات القديمة،ج.1،تر. نسيم وكيم اليازجي. دمشق،منشورات دار علاء الدين،ط.1،ب.ت، ص.683.

Suétone, X.p. 392. (8)

Ibid, VI.p. 390. (9)

(10) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص.310.

(11)Hérodien, HistoireRomain, Trad. LionHalévy, Paris, Librairie De Firmain Didot, 1860, L, II. XLVIII.

. (12)91Suétone, VIII, p. 3

Dion Cassius, L. LXXIV, VIII. (13)

Hérodien, L, III, XIV. (14)

. (15)92Suétone, XI, p. 3

(16) علي الناصري سيد احمد،المرجع السابق، ص، 312.

(17) شنيتي محمد البشير،التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب اثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1984، ص.16.

(18) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش،تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعيوالاقتصادي، ج.1، تر، زكي علي ومحمد سليم سالم،القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ب.ت، ص. 474.

. (19)93Suétone, XIV, p. 3

(20) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص. 310.

(21) رستفتزفميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.475.

Dion Cassius, L, LXXV, VIII. (22)

Ibid,L, LXXV, XIII. (23)

Dion Cassius, L.LXXV, IX. (24)

Hérodien, L, III, XXVIII. (25)

(26) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص. 323.

(27) الحويري محمود محمد، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، دار المعارف،ط.1995،3،ص- ص.15-16.

(28) أ. ب، تشارلزورث،الإمبراطورية الرومانية،تر.رمزي عبده جرجس ومحمد صقر خفاجة، القاهرة، مكتبة الأسرة،2003، ص. 182.

(29) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.476.

(30) ف.دياكوف ، س.كوفاليف، المرجع السابق، ص. 686.

(31) شنيتي محمد البشير،المرجع السابق، ص.21.

(32) المرجعنفسه، ص.17.

(33) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.403.

(34) المرجع نفسه، ص.477.

(35) Hérodien, L, III, XXXIV.

(36) علي الناصري سيد احمد،المرجع السابق، ص.320.

(37) المرجع نفسه،ص.319.

(38) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص. 479.

(39) المرجع نفسه، ص.481.

(40) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.322.

(41) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص. 18.

(42) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص. 405.

(43) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.320.

(44) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.484.

(45) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.315.

(46) شنيتي محمد البشير، السابق،ص.17.

(47) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.315.

(48) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.488.

(49) شنيتي محمد البشير،المرجع السابق،ص- ص،16-17.

(50) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص- ص، 489- 492.

(51) جيبون ادوارد، المرجع السابق،ص، 125.